الْحَجُّ قَبْلَ الإِسْلاَمُ

د. ثامر كاظم الخفاجي

مدير معهد المعلمين المركزي/بابل

المقدمة

قَالَ تَعالَى في كتابه العزيز: (إِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ)[١]، (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ)(فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ)[٢].

الحج ركن من أركان الإسلام، شرّع الله الحج على كلّ مسلم مرّة العمر، ليكون اجتماعاً للمسلمين من شتى أقطار الإسلامية ليتعارفوا وليقربوا الصلة فيما بينهم فتتألف قلوبهم، ويتدارسوا ما يفيدهم ويطهروا نفوسهم بشكر الله عزّ وجلّ على نعمه وتوفيقه إلى أداء فريضة الحج في البلاد المقدسة، التي تتجذب إليه أفئدة المؤمنين من كلّ فجّ عميق حيث الكعبة المشرفة بيت الله العتيق، وحيث عرفة مجمع الحجيج، هناك يسعد المؤمن حين يرى نفسه وسط الجموع المقبلة على الله الملبية لندائه فتزكو روحه، وتصفو نواياه بأداء المناسك.

والحج رحلة قدسية يبذل فيها المسلمون جهد النفس والمال، وتحمل المشاق بالتنقل الدائب لأداء المناسك ووقوف بعرفات وسعي بين مزدلفة ومنى ومن أداء النحر والهدي والحلق والتقصير ورمي الجمرات.

والحق إن موسم الحج مؤتمراً جليلاً يتوحد فيه المسلمون حين تلتقي جموعهم في مهبط الوحي ومثابة العلم، ناعمة بما أفاء الله عليها من العناية الإلهية والهداية المحمدية.

الفصل الأول

الحّج في اللّغة

الْحَجُّ: أي القصد، حج إلينا فلان: أي قَدِم، وحجَّه يحجَّه حجاً، ورجل محجوج: أي مقصود، وحججت فلاناً:أي قصدته[٣].

قال الخليل: قد تكسر الحجّة والْحَجُّ، فيقال حِجّ وحِجّة، ويقال للرّجل الكثير حجّاج، وحجّ علينا فلان، أي قدم، والْحَجُّ: كثرة القصد إلى من يُعَظّم[٤].

وقال ابن السكّت: الْحَجُّ إلى البيت: أي قصد التوجه إلى البيت، وقال الأزهري: الْحَجُّ قضاء نسك سنة واحدة[٥].

وقال المناوي: الْحَجُّ: ترداد القصد إلى ما يراه خيره وبرّه، أو القصد إلى معظم، وشرعاً: قصد الكعبة بصفة مخصوصة[٦].

وقال الطباطبائي: والْحَجُّ هو العمل المعروف بين المسلمين الذي شرّعه إبراهيم الخليل عليه السلام، وكان بعده بين العرب، ثم أمضاء الله سبحانه وتعالى لهذه الأمّة شريعة باقية إلى يوم القيامة، ويبتدأ هذا العمل بالإحرام، والوقوف في العرفات، وفيها التضحية بمنى، ورمي الجمرات الثلاث، والطواف وصلاته، والسعي بين الصّفا والمروة، وفيها أمور مفروضة أُخر[٧].

أنواع الْحَجُّ:

ينقسم الْحَجُّ إلى ثلاثة أقسام وهي:

١-الأفراد: أي ينوي أداء الْحَجُّ وحده.

٢-القران: أي ينوي أداء الْحَجُّ أولاً ثم العمرة بعده.

٣-التمتع: أن ينوي العمرة وحدها فَيُحرِم من الميقات فإذا وصل مكة وأدّى أعمال العمرة تحلل ولبس ملابسه العادية، ثم أحرم مرة أخرى من مكة في اليوم الثامن من ذي الحجّة، ويؤدي أعمال الْحَجُّ.

كان الْحَجُّ إلى مكة يتم في اشهر معلومات وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، قال تعالى: (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ)[٨].

وأشهر الْحَجُّ: شوال، ورجب، وعشرة من ذي الحّجة[٩].

الاستعمال القرآني للْحَجُّ:

جاءت كلمة الْحَجُّ: فعلاً ومصدراً واسم مصدر واسم فاعل بثلاث معاني: ٨ مرّات، وكلها مدنية. قال تعالى:

١- وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ[١٠].

٢- فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلاَ جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَإِنَّ اللّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ[١١].

٣- يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوْاْ الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى وَأْتُواْ الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَاتَّقُواْ اللّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُون[١٢].

٤- وَأَتِمُّواْ الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلاَ تَحْلِقُواْ رُؤُوسَكُمْ حَتَّى يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضاً أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ[١٣].

٥- الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلاَ رَفَثَ وَلاَ فُسُوقَ وَلاَ جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُواْ مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللّهُ وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ[١٤].

٦- وَلِلّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ الله غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ[١٥].

٧- وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ[١٦].

٨- أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ [١٧].

الْحَجُّ الأكبر

قال تعالى: وَأَذَانٌ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُواْ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُواْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ[١٨].

قال الطوسي: قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم: (يَوْمَ الْحَجِّ الأَكْبَرِ) يوم عرفة[١٩].

وقال الطبري: قال عطاء الحجّ الأكبر: الْحَجُّ، والْحَجُّ الأصغر: العُمرة[٢٠].

وقال البغوي، قال الثوري: يوم الْحَجُّ الأكبر: أيام منى كلّها، مثل يوم صفّين ويوم الجمل ويوم بعاث، يراد به الحين والزّمان، لأن هذه الحروب دامت أياماً[٢١].

وقال القرطبي، قال ابن سيرين: يوم الْحَجُّ الأكبر: العام الذي حجّ فيه صلى الله عليه وآله وسلم حجّة الوداع، وحجّت معه فيه الأمم[٢٢].

وقال الفخر الرازي: يوم الْحَجُّ الأكبر: الوقوف بعرفة، والأصغر: النحر[٢٣].

أسماء مكّة

ذكرها الله تعالى في القر آن الكريم في عدة مواضع فقد سماها أم القرى:

قَالَ تَعالَى: (وَهَذَا كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلاَتِهِمْ يُحَافِظُونَ) وقَالَ تَعالَى: (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِّتُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ)[٢٤].

وسماها عزّ وجلّ البلد الأمين في قوله تعالى: (وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ)[٢٥].

وقوله تعالى: (وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ)[٢٦].

وقال تعالى: (وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ)[٢٧] (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِناً)[٢٨] (لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ، وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَد)[٢٩].

وقوله تعالى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ)[٣٠].

ولما خرج الرسول الكريم صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة وقف على الحزورة قائلاً: (إني لأعلم إنك أحّب البلاد إليَّ وانك أحب أرض الله إلى الله ولولا المشركين أخرجوني منك ما خرجت)[٣١].

أما اشتقاقها ففيه عدة أقوال:

روي عن مغيرة بن إبراهيم قال: بكّة: موضع البيت وموضع القرية مكّة، وقيل: إنها سميت بكّة لان الأقدام تبك بعضها بعضا، وعن يحيى بن أبي أنيسة قل: بكّة موضع البيت ومكّة هو الحرم كله، وقال زيد بن أسلم: بكّة الكعبة والمسجد ومكّة ذو طوى: وهو بطن الوادي الذي ذكره الله تعالى في سورة الفتح، في قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِن بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيراً)[٣٢].

قال أبو بكر الانباري: سميت مكّة لأنها تُمّك الجبّارين، أي تذهب نخوتهم[٣٣].

ويقال إنما سميت مكّة لازدحام الناس بها من قولهم، أمتك الفصيل ضرع امّه إذا مصّه مصاً شديداً[٣٤].

وقيل: مكة من المكاء – مخفف– أي الصفير: كانوا بالجاهلية يطوفون بالبيت عراة، يصفرّون بأفواههم ويصفقون بأيديهم[٣٥].

وقال ابن الأعرابي: أن مكّة سميت مكّة: لجذب الناس إليها[٣٦].

ومن أسمائها: أم القرى: لأنها توسطت الأرض، وقال ابن خالويه: يقال لها أم الرحم[٣٧].

ويقال لها: صلاح[٣٨]، ولها عدة أسماء أخرى: وهي مكّة وبكّة وأم رحم وأم القرى ومعاد والحاطمة، والحرم والبلد الأمين والعرش والقادس والمقدسة والناسة والباسة[٣٩].

أن الله سبحانه وتعالى قد ذكر بكّة في موضع واحد: قَالَ تَعالَى: (إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ)[٤٠].

موقع مكّة

من اشهر مدن العالم كلّه وهي عاصمة بلاد العرب وفيها البيت العتيق الذي يحجّ إليه المسلمون من مشارق الأرض ومغاربها وبما أنها في هذه المنزلة فقد وجب علينا أن نطيل في وصفها وبيان أحوالها.

هي مدينة ترتفع على سطح البحر بنحو ٣٣٠متر وهي على عرض ٣١ درجة و٢٨ دقيقة وفي طول ٤٠ دقيقة و٩ دقائق، قال بطليموس: طولها من جهة المغرب ثمان وسبعون درجة، وعرضها ثلاث وعشرين درجة، وقيل: إحدى وعشرين تحت نقطة السرطان، طالعها الثريا، بيت حياتها الثور، وهي في الإقليم الثاني[٤١].

تقع مكّة في منطقة جافة مناخها قاري حار جداً في الصيف، وكان القرشيون يعذبون بعض المسلمون الأوائل بإيقافهم في رمضاء الصيف تعذيباً لهم، غير أن جفاف المناخ أدى إلى جعلها مدينة صحية خالية من الأوبئة وخاصة الملاريا التي كان يعاني منها أهل يثرب وخيبر ذات المياه الوفيرة.

أما أمطار مكّة فهي قليلة، قد تمّر سنوات بدون أن يسقط عليها المطر، فكانت مياهها شحيحة، وقد اعتمد سكانها على مياه الآبار للشرب، ولكن معظم هذه المياه مالحة وغير صالحة، وقد ألقت قلة المياه العبء الكبير على أهالي مكة فحفروا فيها الكثير من الآبار[٤٢].

وهناك رجلاً عيّنت له مهمة تدبير سقاية الحجيج، وكثير ما كانوا يضطرون إلى مزج الماء بالزبيب ليجعلوه صالحاً للشرب.

كانت مكّة في وادي غير ذي زرع، إلا انه قد تنبت فيها بعض الإعشاب مدة قصيرة من السنة لرعي المواشي، ويروى أن قصياً عندما أراد بناء الكعبة اقتطع شجيرات كانت قائمة هناك(٤٣).

وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك، قَالَ تَعالَى: (رَّبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ الصَّلاَةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ)(٤٤).

وقد أدت هذه الظروف المناخية إلى اتجاه سكانها نحو التجارة، وساعدها على ذلك كونها واقعة على الطريق التجاري البري بين اليمن والهلال الخصيب، وهو طريق أفضل من طريق البحر الأحمر المعرضة سفنه إلى الخطر، على أن المكيين لم يكتفوا بان تكون مدينتهم ممراً للقوافل فقط، بل ساهموا بأنفسهم في النشاط التجاري، فقد ذكر القرآن الكريم كثير من التعابير المالية والتجارية التي استعمالها القرآن كالحساب والميزان والقسطاس والذرة والمثقال والدراهم، وقد ساعدها ذلك كونها مركزاً دينياً يحجّ إليه سنوياً عد كبير من العرب، وبذلك يتيح للمكيين سوقاً تجارياً للمبادلة والاستهلاك، كم أنهم مدوا تجارتهم إلى الأقطار الأخرى في سوريا واليمن والحبشة.

الْكَعْبَة

قال ابن دريد: سميّت بالكعبة لتربيعها(٤٥)، وقال ابن منظور: الْكَعْبَة: البيت المربع وجمعه كعاب، والكعبة: البيت الحرام(٤٦).

أول ما خلق الله تعالى في الأرض مكان الْكَعْبَة ثم دحا من تحتها الماء فهي سرة الأرض ووسط الدنيا، وأم القرى، أولها الْكَعْبَة وبكّة حول مكة، وحول مكة الحرم وحول الحرم الدنيا، أما صفتها، فذكر البشّاري وقال: هو في وسط المسجد الحرام، مربع الشكل بابه مرتفع عن الأرض نحو قامة، عليه مصراعان ملبسان بصفائح الفضة قد طليت بالذهب مقابلاً للمشرق، وطول المسجد الحرام ثلاثمائة ذراع وسبعون ذراعاً، وعرضه ثلاثمائة وخمسة عشر ذراعاً وطول الكعبة أربعة وعشرون ذراعاً وشبر، وعرضها ثلاثة وعشرون ذراعاً وشبر، وذرع دور الحجر خمسة وعشرون ذراعاً، وذرع الطواف مائة ذراع وسبعة أذرع، وسمكها في السماء سبعة وعشرون ذراعاً، والحجر من قبل الشام فيه يقلب الميزاب شبه الأندر قد ألبست حيطانه بالرخام مع أرضه، يسمونه الحطيم، والطواف من ورائه ولا يجوز الصلاة عليه، والحجر الأسود على الركن الشرقي عند الباب على لسان الزاوية في مقدار رأس إنسان ينحني إليه من قبّله يسيراً، وقبة زمزم تقابل الباب، والطواف بينهما ومن ورائهما قبة الشراب فيها حوض كان يسقي فيه السويق والسكر قديماً، ومقام إبراهيم عليه السلام بإزاء وسط البيت الذي فيه الباب، وهو أقرب إلى البيت من زمزم، يدخل في الطواف أيام الموسم، عليه صندوق حديد مكسو طوله أكثر من قامة، ويرفع المقام في كل موسم إلى البيت فإذا ردّ جعل عليه صندوق خشب له باب يفتح أوقات الصلاة، فإذا سلّم الإمام استلمه ثم أغلق الباب، وفيه أثر قدم إبراهيم عليه السلام وهو أسود وأكبر من الحجر(٤٧).

أول من بنى الْكَعْبَة الملائكة عليهم السلام قبل أن يخلق آدم عليه السلام بمثاله وقدره بعث الله عزّ وجلّ ملائكة فقال لهم: ابنوا لي بيتاً في الأرض، فأمر الله سبحانه وتعالى من في الأرض من خلقه أن يطوفوا في هذا البيت كما يطوف أهل السماء بالبيت المعمور(٤٨).

وقيل: أن الله تعالى أمر آدم عليه السلام في بناء بيتا له، فأقبل آدم عليه السلام يتخطى فطويت له الأرض حتى انتهى إلى مكة فبنى البيت الحرام(٤٩).

فكان أول من أسس البيت وصلى فيه وطاف به آدم عليه السلام، والبناء عبارة عن حلية من الجنة وضعت له بمكّة في موضع البيت، ومات آدم عليه السلام فبنى بنوا آدم من بعده مكانها بيتاً بالطين والحجارة فلم يزل معموراً يعمرونه هم ومن بعدهم حتى كان زمن نوح عليه السلام فنسفه الغرق، وغيّر مكانه حتى بوئ لإبراهيم عليه السلام(٥٠).

وقيل أن إبراهيم خليل الله عرج به إلى السماء فنظر إلى مشارق الأرض ومغاربها فاختار موضع الْكَعْبَة، فقالت له الملائكة يا خليل الله اخترت حرم الله تعالى في الأرض، فبناه من حجارة سبعة أجبل وقيل خمسة أجبل، وكانت الملائكة تأتي بالحجارة إلى إبراهيم عليه السلام من تلك الجبال(٥١).

ويعّد قصي أول من بنى الْكَعْبَة بعد بناء تبّع(٥٢)، لما ولي أمر البيت جمع نفقته ثم هدم الكعبة فبناها بنياناً لم يبن أحد ممن بناها قبله مثله، بناها على خمس وعشرين ذراعاً ، وحين بناها تمثل قائلاً:

ابني لقومي بيت رفعتها وليبن أهل وراثها بعدي
بنيناها وتمامها وحجابها بيد الإله وليس بالعبد(٥٣)

وأن عبد المطلب جدّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم في عهده قد بنى الْكَعْبَة بعد قصي بن كلاب(٥٤)، وكان السيل قد هدم الْكَعْبَة، فبنت قريش الْكَعْبَة ورفعت من سمكه وكان من البناء إلى أن بعث الله تعالى المصطفى صلى الله عليه وآله وسلم خمس سنوات(٥٥).

مواضع الْحَجُّ قبل الإسلام

١-**عرفات:** وهو منبسط فسيح من الأرض تبلغ مساحتها ١٨ كيلومتر مربع تقريباً، وتقع إلى الشرق الجنوبي من مكّة في وسط الطريق بين مكّة والطائف، وتحيط هذه المنطقة الجبال على شكل نصف دائرة، وفي أطرافها صخور وهضاب، قال ابن عباس: حدّ عرفة من الجبل المشرف على بطن عرفة إلى جبالها إلى قصر آل مالك(٥٦).

وأما سبب تسميتها عرفة، أن جبرائيل عليه السلام عرّف إبراهيم عليه السلام المناسك، فلما وقفه في عرفة قال له: عرفت، قال: نعم فسميت عرفة(٥٧).

ويقال بل سميت بذلك لأن آدم وحواء عليهما السلام تعارفا بها بعد نزولهما من الجنة، ويقال أن الناس يعترفون بذنوبهم في ذلك الموقف، وقد كان ليوم عرفة رئيس من بيت معين من بيوتات العرب، لا يفيض الناس إلاّ بإفاضته(٥٨).

ولعل الزعماء وأصحاب الشأن من العرب كانوا يتخذون من هذا اليوم المشهود وسيلة لإعلان بعض الأمور وإبلاغها للناس، وقد اتخذه النبي صلى الله عليه وآله وسلم فرصة هذا اليوم المشهود لإعلان البراءة من المشركين حين كلف الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام تلاوة سورة التوبة عليهم، ويوم عرفة يوم يباهي الله عزّ وجلّ به الملائكة(٥٩).

٢-**مزدلفة:** ثاني الأماكن، وهو الموضع الذي سماه القرآن الكريم بـ(المشعر الحرام) وفيه مبيت الحاج ليلة العيد، وقد اختلف في معنى تسميتها بذلك، قال ياقوت: إنها منقولة من (الازدلاف) وهو الاجتماع، وقيل: الازدلاف: الاقتراب لأنها مقربة من الله تعالى، وقي لازدلاف الناس في (منى) بعد الإفاضة، وقيل الزلفة: القربة، فسميت مزدلفة لأن الناس يزدلفون فيها إلى المحرم(٦٠).

ومن مجموع هذه الأقوال نستنتج أن مادة التسمية إنما هي من الاجتماع أو الاقتراب، وربما الكل صحيح من دون الحاجة إلى أن نختار معنى دون الآخر.

٣- **مِنى**- بالكسر والتنوين- وهي على وزن رضا، موضع يقع بالقرب من مكة في درج الوادي الذي ينزله الحاج ويرمي فيه الجمار، وقد جاء في كتب اللغة معان لهذه الكلمة، منها: الاختبار والامتحان، ومنها: سمي بذلك لما يمنى فيه الدماء، أي يراق(٦١).

وقيل: لأن آدم عليه السلام تمنى فيه الجنة، والتفسير الأول أكثر موافقة للمنطق.

تقع منى بين جبلين مطلين عليها، وكان أبو الحسن الكرخي يحتج بجوار الجمعة بها، لأنها ومكة كمصر واحد، فلما حجّ أبو بكر الجصاص ورأى بعد ما بينهما استضعف هذه العلّة وقال: هذه مصر من أمصار المسلمين تعمر وقتاً وتخلوا وقتاً، وخلوها لا يخرجها عن حد الأمصار(٦٢)، وفيها يلتزم الحاج بالمكوث ثلاثة أيام هي: أيام التشريق: وفيها ترمى الجمار.

ويمكن أن تقرأ مُنى– بالضم لا بالفتح– وهي جمع أُمنية فقد جاء عن الإمام الصادق عليه السلام إنها سمّيت بهذا الاسم لأن جبرائيل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام فقال له: تَمُنُّ يا إبراهيم(٦٣)، وفي هذه الأرض كان إبراهيم خليل الله عليه السلام تحت اختبار وامتحان وبلاء شديد، ومن هذا المكان وصل عليه السلام إلى مقام الإمامة.

الوظائف الدينية في مكة:

تعد مكّة من أهم المراكز الدينية الذي يحجّ إليها عدد كبير من الناس، مما أدى إلى ظهور عدة وظائف للقيام بها في خدمة الحجيج وما يحتاج إليها الحاجّ، وأن أهم هذه الوظائف هي وظيفة متصلة بالدين وأموره، وهذه الوظائف توضع لخدمة الحجيج، وقد تكون هذه الوظائف قديمة ومنذ زمن بعيد.

لما تولى قصي سيادة مكة بقيت هذه الوظائف بيد أصحابها القدماء، ويروي ابن إسحاق أن قصياً قد أقرّ للعرب في شأن حجهم ما كانوا عليه من قبل لأنه كان يراه ديناً في نفسه لا ينبغي له تغييره، فمن هذه الوظائف:

١–**النسيء:** وهي الوظيفة التي فيها القائم يعلن عليها الأشهر الحرم، ومن المعلوم انه كانت هناك أربعة أشهر حرم لا يجوز فيها الحرب والقتال بل يسود فيها السلم والأمن، وقد أشار القرآن الكريم إلى الأشهر الحرم، قَالَ تَعالَى: (إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ)(٦٤).

ويظهر إنه كان لقريش دور كبير في جعل العرب تحترم هذه الأشهر الحرم، فضلاً عن أن بعض القبائل له أشهر حرم غير هذه، فكان لغطفان (البسل) وهي ثمانية أشهر حرم لهم من كلّ سنة من بين القبائل(٦٥).

قال الكلبي: أول من أنسأ الشهور من مضر: مالك بن كنانة ، وذلك أن مالك بن كنانة نكح إلى معاوية بن ثور الكندي وهو يومئذ في كندة وكانت النساءة قبل ذلك في كندة(٦٦)، ثم صار في بني مالك بن كنانة، وقد كانت العرب في الجاهلية تكبس في كل ثلاث سنين شهراً وتسميه النسيء أي التأخير(٦٧)، وقد ظلوا يقومون فيه حتى جاء الإسلام فحرّمه بعد مكّة، قال الله تعالى: (إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُحِلِّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً)(٦٨).

٢–**الحجابة:** إن القائم بهذا العمل يمتلك مفاتيح الكعبة، وهو الذي يأذن للناس بالدخول في الكعبة، وهذه الوظيفة لا تتطلب من أن يكون صاحبها عالماً دينياً، وكانت مورد رزق للقائمين بها، وقد كانت عند خزاعة ثم أخذها قصي من خزاعة، وصار من بعده إلى ولده عبد الدار ثن لأولاده من بعده، وقد أرجعها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى بني عبد الدار بعد فتح مكة(٦٩)، فطلبها العباس بن عبد المطلب من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تعالى على نبيّه الكريم: قَالَ تَعالَى: (إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤدُّواْ الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُواْ بِالْعَدْلِ إِنَّ اللّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللّهَ كَانَ سَمِيعاً بَصِيراً)(٧٠)، فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عثمان بن طلحة فدفع إليه المفتاح، وقال صلى الله عليه وآله وسلم: غيبوه ثم قال صلى الله عليه وآله وسلم: خذوها يا بني أبي طلحة بأمانة الله سبحانه(٧١).

٣–**عمارة البيت:** لقد أشار القرآن الكريم إلى عمارة البيت، قَالَ تَعالَى: (أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللّهِ لاَ يَسْتَوُونَ عِندَ اللّهِ وَاللّهُ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ)(٧٢)، ويروي ابن حجر أن السقاية والعمارة في الجاهلية كانت للعباس بن عبد المطلب(٧٣).

٤–**الرفادة:** كان كلّ ما تجمعه قريش من أموالها إلى قصي بن كلاب ليصنع منه طعاماً للحاج يأكله من لم يكن له سعة ولا زاد في موسم الحجّ، وأن قصياً قد فرضه على قريش فقال لهم: يا معشر قريش إنكم جيران الله وأهل بيته وأهل الحرم وأن الحاج ضيف الله وزوار بيته هم أحق بالضيافة والكرم، فجعلوا لهم شراباً وطعاماً أيام الحج، فكانوا يخرجون سنوياً من أموالهم فيدفعونه إليه فيضعه للناس أيام (منى) فجرى ذلك حتى ظهور الإسلام(٧٤).

٥–**السقاية:** كانت تصنع السقّة من حياض من أدم وتوضع في فناء الكعبة ومنى وعرفة وتملأ بالماء العذب من الآبار على الإبل ويسقى الحاج، وكانت في عهد قصي(٧٥)، ونظراً لقلة المياه العذبة الصالحة للشرب فكانت هذه المهمة صعبة

وخاصة لبلد مثل مكة، ولكن السقاية كانت فقط تقتصر على الحجيج، وكانت السقاية عند ظهور الإسلام مودعة للعباس الذي كثير ما كان يمزج الماء بالزبيب(٧٦).

ومن الوظائف الدينية المهمة التي توجب الاهتمام بها في مكة هو الأمن والحماية للحجيج من الصعاليك وسرّاق الطرق التي تدفعهم نزعاتهم الخاصة وسوء الأحوال إلى ارتكاب الجرائم فضلاً عن الغزوات الخارجية التي كانت تتعرض له مكة، أو قد تقوم مكة نفسها بحرب ضد أعدائها، لذلك كان من الواجب عليها تهيئة جيش لمواجهة الأخطار، فقد نظمت وظائف عسكرية منها:

أ-اللواء: وهو العلم الذي يحمل في المعارك وتدور حوله المعركة، وكان يسند إلى بني عبد الدار(٧٧).

ب-القيادة: وهي غير اللواء، وكانت بيد بني أميّة، وقد قاد أبو سفيان قريشاً في أحد والخندق(٧٨).

ج-الأعنّة: ويكون صاحبها المقدم على خيول قريش في الحرب(٧٩).

د-الحكومة: وهي الأموال التي يسمونها لآلهتهم(٨٠).

وقد ينشأ هنالك خلاف بين أفراد العشيرة أو أفراد القبائل فأنهم كانوا يلجأون إلى الكاهن أو الهاتف أو الاستقسام بالأنصاب والأيسار، وذلك لعدم وجود وظيفة القاضي، أو حاكم في القضايا التي تنشب بين الناس(٨١).

ولاية خزاعة لبيت الله الحرام

خزاعة: مشتقة من قولهم: انخزع القوم عن القوم إذ انقطعوا عنهم وفارقوهم، وذلك أنهم انخزعوا عن جماعة الأسد أيام سيل العرم، لما صاروا إلى الحجاز، فافترقوا بالحجاز فصار قوم إلى عمان وآخرون إلى الشام(٨٢)، قال حسان:

فلما قطعنا بطن مر تخزعت خزاعة منا في جموع الكراكر(٨٣)

وقبيلة خزاعة تفرقت من بني عمرو بن لحي(٨٤).

بعد أن جاءت جرهم وقاطوراء وهما قبيلتان من اليمن أبناء عمّ جرهم بن عامر بن سبأ بن يقطن بن شالخ بن أرفخشد بن سام بن نوح عليه السلام، فرأيا بلداً ذا ماء وشجر فنزلا ثم تزوج إسماعيل عليه السلام من جرهم، ولما توفي إسماعيل جاء بعده ولده نابت ثم ولي بعده خاله مضاض بن عمرو الجرهمي، بدأت المنافسة على الملك بين قاطوراء والجرهميين وتداعوا للحرب واقتتلوا قتالاً شديداً انهزمت قاطوراء وبقي الملك لجرهم، ولكن الجرهميين بغوا بمكة فاستحلوا حراماً من الحرمة فظلموا من دخلها وأكلوا مال الكعبة الذي يهدي إليها سراً وعلانية، ونالوا ما لم يكن ينالون واستخفوا بحرمة الحرم، وكلما عدا سفيها منهم على منكر لم يجد أشرافهم من يمنعه ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها، حتى دخل رجل منهم بامرأته الكعبة وفجر بها أو قبّلها فمسخا حجرين ففرّق أمرهم فيها وضعفوا وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا وكانوا قبل ذلك من أعّز العرب وأكثرهم رجالاً وأموالاً وسلاحاً، وقد نصحهم رجل منهم يقال له: مضاض بن عمر بن الحارث بن مضاض بن عمرو قام خطيباً فوعظهم وقال: يا قوم ابقوا على أنفسكم وراقبوا الله في حرمه وأمنه فقد رأيتم وسمعتم من هلك من صدر هذه الأمة قبلكم قوم هود وصالح وشعيب فلا تفعلوا وتواصوا وتواصلوا بالمعروف وانتهوا عن المنكر ولا تستخفوا بحرم الله تعالى وبيته الحرام ...(٨٥).

وكانت مكّة تسمى النساسة لا تقرّ ظلماً ولا بغياً ولا يبغي فيها أحد على أحد إلا أخرجته، وكان بنو بكر بن عبد مناة بن كنانة بن غسان، وخزاعة حلوا حول مكّة بعد أن هاجرت خزاعة من اليمن بعد سيل العرم في نحو منتصف القرن السادس قبل الميلاد وعليهم مضاض ابن الحارث وسكنوا ظواهر مكة(٨٦)، ثم هجموا على الجرهميين وطردوهم من مكّة، وبقيت خزاعة على ولاية البيت حوالي ثلاثمائة سنة وقيل: خمسمائة سنة(٨٧)، يتوارثونها واحداً بعد واحد، وكان آخرهم حليل بن حبشية بن سلول بن كعب بن ربيعة: وهو خزاعة بن حارثة بن عمرو مزيقيا الخزاعي.

وكان أول من ولى أمر البيت من خزاعة عمرو بن لحي[٨٨]، فغيّر دين إبراهيم عليه السلام وبدّله بعبادة الأوثان، وهو أول من نصب الأصنام حول الكعبة وجاء بهبل من هيت من أرض الجزيرة فنصبه في بطن الكعبة.

قال ابن هشام: حدّثني بعض أهل العلم أن عمرو بن لحي خرج من مكة إلى الشام في بعض أموره فلما قدم مآب من أرض البلقاء وبها يومئذ العماليق وهم ولد عملاق ويقال ولد عمليق ابن لاوذ بن سام بن نوح عليه السلام رآهم يعبدون الأصنام فقال لهم: ما هذه الأصنام التي أراكم تعبدونها؟ قالوا له: هذه أصنام نعبدها فنستمطرها فتمطرنا، ونستنصرها فتنصرنا، فقال لهم: ألا تعطوني منها صنماً فأسير بها إلى ارض العرب فيعبدونه، فأعطوه صنماً يقال له هبل فقدم به مكة فنصبه وأمر الناس بعبادته وتعظيمه[٨٩].

كانت العرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غيّر الحنفية دين إبراهيم عليه السلام[٩٠]، وقيل أن أول من سيب السوائب وعبد الأصنام أبو خزاعة: عمرو بن عامر، وأنه رأوه يجر معدته في النار، وهذا يقتضي أن عمرو بن لحي هو أبو خزاعة الذي تنسب إليه القبيلة بكمالها كما زعمه بعضهم من أهل النسب[٩١]، وكان أمر البيت بأيديهم من سدانة (خدمة البيت) والسقاية (سقاية الحجيج) زمناً طويلاً حتى أن بعض التابعة قد سار ليهدّمه ويخرّبه فقامت دونه خزاعة فقاتلت عليه اشد القتال حتى رجع[٩١]، وما زال أمر البيت في يد خزاعة حتى رجع قصي بن كلاب من الشام وكان ذاهباً إلى أمّه صغيراً وهو من أحفاد كعب والبطن الرابع والعشرين من إسماعيل فجمع قبائل قريش بما كان فيه من حسن السياسة والذكاء وقوة المعارضة بعد أن كانت تفرقت وأخذت الشحناء تدب بينهم حتى انتقلت إلى قصي، بعد أن أبت خزاعة أن تدع المفاتيح بيد قصي واخذوا المفاتيح من حبّى بعد أن سلّمت حبّى المفاتيح إلى قصي[٩٢].

ولاية قصي بن كلاب البيت الحرام

قصي: وهو تصغير قاص، وأسمه: زيد، وإما سمي قصياً لأنه قصا عن قومه، فكان في بني عذرة مع أخيه لأمّه، ويقال : قصا الرجل يقصو قصواً[٩٣].

وكان قصياً يلّقب مجَّمعاً لأنه جمع قريش بمكة من أقطارها، يقول الشاعر[٩٤]:

أبونا قصياً كان يدعى مجّمعاً به جمع الله القبائل من فهرِ

وقصي أول من بنى الكعبة بعد بناء تُبّع، وكان سمكها قصيراً فنقضه ورفعها وبنى دار الندوة: وهي الدار التي كانت قريش تجتمع فيها عبد النوائب في حرب أو غيرها، ولم يكن يدخلها إلا ابن أربعين أو ما زاد.

ومن ولد قصي: عبد مناف وعبد الدار ودرج عبد ولا نسل له[٩٥].

كانت لقصي مكانة خاصة عند القريشيين، فهو الذي استطاع أن ينتزع إدارة مكّة من خزاعة ويجعلها لقريش التي توحدت بعد أن كانت متفرقة في كنانة، وتروي المصادر العربية إنه نشأ وشبّ عند أخواله بني قضاعة[٩٦]، ثم جاء وتزوج من حُبّى بنت خليل الخزاعي الذي كان سيد مكّة، وقد تمكن بذلك بمساعدة قضاعة من انتزاع سيادة مكة من أيدي خزاعة[٩٧]، فولى قصي البيت وأمر مكّة وجمع قومه من منازلهم إلى مكّة، وقريش إذاك حلول وصرم وبيوتات متفرقون في قومهم من بني كنانة، إلا أنه أقرّ للعرب ما كانوا عليه وذلك إنه كان يراه دَيْناً في نفسه لا ينبغي تغيره، فكان قصي أول بني كعب بن لؤي أصاب ملكاً أطاع له به قومه، فكانت إليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء، فحاز شرف مكّة كلها.

قام قصي بقطع أرباعاً بين قومه فأنزل كل قوم من قريش منازلهم من مكّة التي أصبحوا عليها، ويزعم الناس أن قريشاً هابوا قطع شجر الحرم في منازلهم فقطعها قصي بيده وأعوانه فسمته مجمعاً لما جمع من أمرها وتيمنت بأمره فما تنكح امرأة ولا يتزوج رجل من قريش وما يتشاورون في أمر نزل بهم ولا يعقدون لواء الحرب قوم غيرهم إلا في داره، يعقده لهم بعض ولده، وما تدرع جارية إذا بلغت أن تدرع من قريش إلا في داره، يشق عليها درعها ثم تدرعه ثم ينطلق بها إلى أهله، فكان أمره في قومه من قريش في حياته ومن بعد موته كالدين المتبّع لا يعمل بغيره، وأتخذ دار الندوة وجعل بابها إلى مسجد الكعبة، ففيها كانت قريش تقضي أمورها[٩٨].

وبهذه النصوص يبدو أن قصياً كانت بيده الأمور الإدارية والاقتصادية والاجتماعية، لأنه حاول إعادة تنظيمها بشكل أدى إلى تركيز كافة السلطات بيده، وكانت له من قوة الشخصية ما جعل الناس تذعن له.

أما الشؤون الدينية فقد تركها بيد من كان يتولاها قبله فلم يمس منها إلا ما رواه الازرقي وغيره من انه نقل أساقاً ونائلة من الصفا والمروة ووضعهما على بئر زمزم والآخر لصقه بالكعبة[٩٩].

وقد أحدث قصي أيضاً وقود النار بالمزدلفة، وظلت تلك النار توقد تلك الليلة في الجاهلية والإسلام[١٠٠]، وقد أورث قصي ابنه عبد الدار سلطاته فأعطاه دار الندوة كما أعطاه الحجابة واللواء والسقاية والرفادة[١٠١].

قال الازرقي: أن قصياً قسم الوظائف بين ابنيه عبد الدار وعبد مناف، فأعطى عبد الدار السدانة وهي الحجابة ودار الندوة، والسقاية والرفادة والقيادة[١٠٢].

أولاد قصي وولاية بيت الله الحرام

لقد أورث قصي ابنه عبد الدار سلطاته جميعها ثم أورث عبد مناف هذه السلطات من بعده ثم صارت إلى ولده عامر بن عبد مناف بن عبد الدار[١٠٣]، غير أن بني عبد مناف بن قصي نافسوا عامراً على ما كانت له من سلطات وأرادوا انتزاعها منه، وقد ناصرهم على ذلك بنو أسد بن عبد العزى وبنو زهرة وبنو تيم بن مرّة وبنو الحارث بن فهر، أما بنو عبد الدار فلم يستسلموا لمنافسيهم، ووجدوا لهم مؤيدين في بني مخزوم وبني جمح وبني سهم وبني عدي، وهكذا انقسمت قريش إلى كتلتين متخاصمتين، وكونت عشائر كل كتلة حلفاً بينهما، ويدعى حلف بني عبد مناف بحلف المطيبين[١٠٤].

أما حلف بني عبد الدار فيدعى حلف لعقة الدم، وقد سوي الخلاف بطريقة سلمية بينهم، بان تبقى الحجابة واللواء والندوة بيد بني عبد الدار، أما السقاية والرفادة فتصبح لبني عبد مناف[١٠٥].

اخذ هشام بن عبد مناف السقاية والرفادة بعد الصلح الذي عقد بينه وبين زعيم المعارضة عامر بن عبد مناف بن عبد الدار، وهذا دليل على قوة شخصية هذا الرجل وما يتمتع به من نفوذ وفضل كبير، فضلاً عن دوره الاقتصادي الكبير في حفره لعدة آبار منها بئر سجلة[١٠٦]، وبئر بذر، فلما حفرها قال هشام: لأجعلنّها للناس بلاغاً[١٠٧]، وهشام هو أول من أطعم الثريد للحجاج في مكة[١٠٨]، وهو أول من سن الرحلتين لقريش، رحلة الشتاء والصيف[١٠٩].

وهو الذي أخذ الإيلاف (فأخذ لهم هشام حبلاً من ملوك الشام والروم وغسان، وأخذ لهم عبد شمس حبلاً من النجاشي الأكبر فذهبوا بذلك السبب إلى العراق وأرض فارس، وأخذ لهم المطلب حبلاً)[١١٠]، وهذا دليل بأن هشام كانت له علاقة طيبة مع إخوانه، وقد مات هاشم بغزة[١١١].

ثم تولى بعد هشام أخيه المطلب السقاية والرفادة، ولما توفي المطلب رجعت السقاية إلى شيبة بن هشام الذي عاد من المدينة بعد وفاة أبيه، وقد سمي شيبة بن عبد المطلب لعمّه وولى السقاية والرفادة، وحفر بئر زمزم عند الكعبة فعفت على آبار مكة كلها[١١٢]، وكان منها شرب الحاج.

وكانت لعبد المطلب إبل كثيرة، فإذا كان موسم الحج جمعها ثم يسقي لبنها في حوض من أدم عند زمزم ويشتري الزبيب فينبذه بماء زمزم ويسقيه الحاج[١١٣].

إن زعامة عبد المطلب لم تكن خالية من المنافسة في بادئ الأمر سواء كانت من العشائر أو من زعماء قريش، ويروي الطبري أن نوفل بن عبد مناف نافس عبد المطلب على السقاية في الصفا فاستنجد بأخواله بني النجار[١١٤].

ولعل أبرز ما حدث في عهد عبد المطلب هي غزوة الأحباش لمكّة وتشتت شمل الحملة، ويذكر أن سبب تلك الحملة هو أن أبرهة الحبشي قد أجمع على أن يبني القليس (وهي كنيسة بناها في اليمن)[١١٥] حتى يظهر على ظهره فيرى نه بحر عدن وأراد أن تحجّه العرب ولكن أحد المكيين استاء من ذلك فجاء إلى الغليس وتغوط فيها، فأغتاظ أبرهة من ذلك وجهز جيشاً لاحتلال مكة وتدمير الكعبة فيها[١١٦٥]، وتشير المصادر أن أهل مكة انسحبوا وأن عبد المطلب خرج يفاوض أبرهة

لكي لا يمس بعض أباعر يمتلكها، وقد أعجب أبرهة كيف أن كبير مكة وسيدها يفاوض على إنقاذ إبله دون أن يتطرق إلى مكة والكعبة، باعتبار أن للبيت ربّاً يحميه، كما تضع الرواية على لسان عبد المطلب[١١٧].

أقول أن هاتين الروايتين لا يمكن لأي عربي غيور أن يتقبلّها، أولا: الرواية الأولى التي تذكر بان أهل مكة اغتاظوا لبناء أبرهة كنيسة مع العلم أن هناك كنائس موجودة في أماكن عدة من بلاد الروم ولم يغتاظوا منها المسلمون، ثانياً: ليس من قيم العربي أن يدخل بيوت الغرباء حتى يفعل عمل غير أخلاقي ويتغوط في ديار الغرباء! وأين في أعظم مقدساتهم، وأما بالنسبة إلى عبد المطلب وتسليمه بيت الله الذي بناه جده الخليل عليه السلام بهذه السهولة والتوسل بالحصول على إبله فهذا محض افتراء، فكيف يفعل ذلك وهو الذي استنجد بأخواله بني النجار على زعامته للبيت، وكان يجمع أمواله وإبله سنوياً حتى يسقي ويطعم الحجيج، أن هذه الروايات الهزيلة وان كان فيها شيء من الصحة فالغرض منها رعاية ومصلحة أهل مكّة ولكن ليس بهذا الشكل، فكان موقف عبد المطلب هذا له الدور الكبير في ازدياد مكانته عند العرب.

ونحن لا ننسى أن من أسباب حملة أبرهة على مكة هو بسبب الصراع الذي كان دائراً بين الساسانيين والبيزنطيين، وطلب البيزنطيين من ملك الحبشة القوة ليعينهم بقوة عسكرية على أعدائهم الساسانيين فكان طريقهم سالكاً على مكة لينضم إلى الجيوش البيزنطية، وكان يرافق هذه الحملة فيل وربما فيلة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحملة في سورة الفيل، قَالَ تَعالَى: (أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ)[١١٨]، وكان قدوم أبرهة مكة يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة بقيت من المحرم سنة ثمانمائة واثنتين من عهد ذي القرنين[١١٩].

لما أهلك الله تعالى أبرهة الحبشي صاحب الفيل وجيشه عظّمت العرب قريشاً وأهل مكة، وقالوا أهل الله قاتل عنهم وكفاهم مؤنة عدوهم فازدادوا من تعظيم الحرم والمشاعر الحرام والشهر الحرام ووقروها ورأوا أن دينهم خير الأديان وأحبها إلى الله[١٢٠].

ومن أولاد عبد المطلب: عبد الله الذي كان أصغر أولاده سناً فخرج به إلى وهب بن عبد مناف بن زهرة بن كلاب بن مرّة بن كعب بن لؤي بن غالب بن زهرة وهو يومئذ سيد بني زهرة سناً وشرفاً فزوجه بابنته آمنة بنت وهب وهي يومئذ سيدة نساء قومها، وقد توفي عبد الله وترك أرملته وطفلها الوحيد يتيماً، وهناك خلاف في تاريخ وفاته فقيل بعد شهرين من موله الشريف، وقال آخرون بعد سنة من مولده، وروى جماعة أن عبد الله توفي وعمر النبيّ صلى الله عليه وآله ثمانية وعشرون شهرا[١٢١].

فكان المصطفى صلى الله عليه وآله سيد ولد آدم وفخرهم في الدنيا والآخرة، أختاره الله عزّ وجلّ للرسالة والقيام بالدعوة لدين الحق والوحدانية المطلقة، واستطاع بعد نضال ثلاث وعشرين سنة أن ينشره بين العرب في معظم أنحاء الجزيرة العربية ثن امتد بعد وفاته ليشمل جميع بقاع الدنيا ولا يزال يلعب دوراً مهماً في التوجيه الحضاري والفكري والسياسي لمعتنقيه الذين يناهزون المليارات من المسلمين.

الخلاصة

ليس شك أن البحث لم يكن بحثاً طويلاً بسبب الامتداد الزمني الذي يشمل ولاية الحاج قبل الإسلام، وبالتحديد من قبيلة خزاعة إلى عصر الإسلام، فقد حصلت على معلومات ساعدتني على إتمام البحث الجليل وإظهاره بالمظهر الذي يرضي الجميع، وبعد إتمامي لهذا البحث، أرى في حاجة إلى الوقوف ملياً عند بعض النتائج المهمة في البحث والتي استخلصتها كما يلي:

تأكد لي بعد دراستي لمكة ولتاريخ الحجّ، أن لمكّة أهمية كبيرة في التاريخ العربي والإسلامي كونها أكبر المراكز الدينية في الجزيرة، يؤمها عدد كبير من مختلف أنحاء الجزيرة، فضلاً عن التمسك العربي بهذه البقعة المقدسة وحمايتها من الهجمات

والأطماع الأجنبية، فضلاً عن الإدارة الكبيرة التي تديرها القبائل العربية التي كانت تسكن مكة سواء كانت خزاعة أو قبيلة قصي بن كلاب وأولاده من بعده، والتي كانت تقدّم أفضل الخدمات للحاج وكل شيء يحتاجه الحاج، والنظام الجميل المتبّع في توزيع الوظائف الدينية لخدمة حجاج بيت الله الحرام وخاصة في عهد ولاية قصي بن كلاب وأولاده من حجابة وعمارة البيت والسقاية رغم قلة المياه في مكة، فكانوا يهيأون الماء ويمزجوه بالزبيب، فضلا عن الرفادة التي تخرج قريش أموالاً منها لتصنع طعاماً من لم يكن له سعة ولا زاد، وهناك الحماية والأمن للحجيج من الاعتداء الخارجي ومن بعض الأعراب والسرّاق، هذا يبيّن كرم العرب واحترامهم لبيت الله الحرام ومحبتهم لإخوانهم العرب من كل بقاع الجزيرة العربية.

هذا ما توصلت إليه من نتائج البحث عرضتها بإيجاز، أرجو أن أكون قد وفقت إلى الصواب بفضل الله وحده، ومنّة الأعلام الذين عبّدوا طريق المعرفة وسهلوا مقاصدها بعلمهم وعملهم وبهم اقتديت، والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خير الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه الغرّ الميامين ومن والاهم إلى يوم الدين وسلم تسليما.

الهوامش:

١. **الحج: الآية ٢٦.**
٢. آل عمران: الآية ٩٦، والآية ٩٧.
٣. ابن منظور: لسان العرب ٥١٥/٣.
٤. العين ٩/٣.
٥. ابن منظور: لسان العرب ٥١٥/٣.
٦. التوقيف على مهمات التعاريف ٢٦٨/٢.
٧. الميزان ٧٥/٢.
٨. البقرة: الآية ١٩٧.
٩. الطبري: جامع البيان في تفسير القرآن ٣٥١/٢، المسعودي: مروج الذهب ٢٠٥/٢، السيوطي: الدر المنثور ٢١٧/١، قال الشيخ الطوسي: (وأشهر الحج شوال، وذو القعدة، وعشر من ذي الحجة، على ما روي عن أبي جعفر عليه السلام وبه قال ابن عباس، وابن عمر، وإبراهيم، والشعبي، ومجاهد، والحسن، واختاره الجبائي، وقال عطا، والربيع، وابن شهاب، وطاووس: أشهر الحج شوال، وذو القعدة، وذو الحجة) التبيان ١٦٢/٢.
١٠. سورة الْحَجُّ: الآية ٢٧.
١١. البقرة: ١٥٨.
١٢. البقرة: ١٨٩.
١٣. البقرة: ١٩٦.
١٤. البقرة: ١٩٧.
١٥. آل عمران: ٩٧.
١٦. التوبة: ٣
١٧. التوبة: ١٩.
١٨. التوبة: ٣.
١٩. التبيان ١٩٩/٥.
٢٠. تفسير الطبري ٧٥/١٠.
٢١. معالم التنزيل ٣١٧/٢.

٢٢.جامع لأحكام القرآن ٧٠/٨.
٢٣.التفسير الكبير ٢٢٢/١٥.
٢٤.سورة الأنعام: الآية ٩٢، سورة الشورى: الآية ٧.
٢٥.سورة التين: من الآية ٣.
٢٦.سورة الحج: من الآية ٢٩.
٢٧.سورة المائدة: من الآية ٢.
٢٨.سورة إبراهيم: من الآية ٣٥.
٢٩.سورة البلد: الآية ١ و٢.
٣٠.سورة إبراهيم: من الآية ٣٧.
٣١.المتقي الهندي: كنز العمال ٢٥٩/١٢.
٣٢.الحموي: معجم البلدان ١٨٢/٥.
٣٣.الفتح: ٢٤.
٣٤.الحموي: معجم البلدان ١٨١/٥.
٣٥.ابن منظور: لسان العرب ٥٢٥/٣.
٣٦.م. ن.
٣٧.السيوطي: المزهر في اللغة ٣١٤/١.
٣٨.م. ن ٣٩٩/١.
٣٩.م. ن ١٢٩/٢.
٤٠.الحموي: معجم البلدان ١٨٢/٥.
٤١.آل عمران: ٩٦.
٤٢.الحموي: معجم البلدان ١٨١/٥.
٤٣.الازرقي: أخبار مكة ٢١٤/٢، يذكر فيها الازرقي عدد كبير من الآبار التي حفرت قبل بئر زمزم منذ زمن نبي الله آدم عليه السلام إلى أيام الخليفة العباسي المأمون (ت٢١٨ هـ).
٤٤.ابن هشام: السيرة ١٣٧/١، الطبري: تاريخ الأمم والملوك ١٨٤/٢.
٤٥.إبراهيم: ٣٧.
٤٦.الاشتقاق ص ٢٤.
٤٧.لسان العرب ٢٦٦/٣.
٤٨.الحموي: معجم البلدان ٤٦٤/٤.
٤٩.الازرقي: أخبار مكة ٣٤/١، ابن خلدون: المقدمة ٣٥٠.
٥٠.الازرقي: أخبار مكة ٣٦/١، الحاكم النيسابوري: المستدرك على الصحيحين ٤٢١/٢.
٥١.الازرقي: أخبار مكة ٥٠/١.
٥٢.م.ن ١٥٣/١.
٥٣.ابن دريد: الاشتقاق ص ١٥٥، ابن خلدون: المقدمة ص ٣٥١.
٥٤.باسلامة: تاريخ الكعبة المعظمة ص ٦٣.
٥٥.م. ن ص ٦٥.

٥٦.المسعودي: مروج الذهب ٢٧٨/٢.
٥٧.الحموي: معجم البلدان ١٠٤/٤.
٥٨.م.ن ١٠٤/٤.
٥٩.ابن هشام: السيرة ١٣١/١.
٦٠.الحر العاملي: وسائل الشيعة ٢٢٤/١١.
٦١.الحموي: معجم البلدان ١٢٠/٤.
٦٢.الحموي: معجم البلدان ١٩٨/٥.
٦٣.الصدوق: من لا يحضره الفقيه ١٩٧/٢.
٦٤.التوبة:٣٦.
٦٥.ابن هشام: السيرة ٤٣/١.
٦٦.الازرقي:أخبار مكة ١٨٢/١.
٦٧.المسعودي: مروج الذهب ٢٠٤/٢.
٦٨.التوبة: ٣٧.
٦٩.ابن سعد: الطبقات الكبرى ١٠/٤، الازرقي: أخبار مكة ١١٠/١.
٧٠.النساء: ٥٨.
٧١.الأزرقي: أخبار مكة ١١١/١.
٧٢.التوبة: ١٩.
٧٣.الإصابة في تمييز الصحابة ٣٦٣/٢.
٧٤.ابن هشام: السيرة ١٤٤/١، الطبري: تاريخ ١٨٥/٢.
٧٥.ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤١/١.
٧٦.الأزرقي: أخبار مكة ١١٤/١.
٧٧.الأزرقي: أخبار مكة ١١٥/١.
٧٨.ابن الأثير: أسد الغابة ١٠١/٢.
٧٩.ابن حجر: الإصابة ٣٦٣/٢.
٨٠.ابن هشام: السيرة ١٢٥/١.
٨١.ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٦٨.
٨٢.م.ن ص ٤٦٨.
٨٣.م.ن ص ٤٦٨.
٨٤.الأزرقي: أخبار مكة ٩٠/١.
٨٥.وجدي: دائرة معارف القرن العشرين ٣٥٥/٩.
٨٦.الأزرقي: تاريخ مكة ص١٢٣، اليعقوبي: تاريخ ٢٥٤/١.
٨٧.الحموي: معجم البلدان ١٨٦/٥.
٨٨.ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٧/٢.
٨٩.الازرقي: تاريخ مكة ص ١٠٠.
٩٠.ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢.

٩١.ابن كثير: البداية والنهاية ١٨٨/٢.

٩٢.حبّى بنت حليل سادن الكعبة، زوّجها إلى قصي بن كلاب، وأوصى إليها وأعطاها مفاتيح الكعبة فأعطته لزوجها قصياً، فتحولت الحجابة من خزاعة إلى قصي، ابن دريد: الاشتقاق ص ٤٦٩.

٩٣.ابن دريد: الاشتقاق ص ١٩.

٩٤.م.ن ص ١٥٥.

٩٥.م.ن ص ١٥٥.

٩٦.ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٦/١، الطبري: تاريخ ١٨١/٢.

٩٧.الطبري: تاريخ ١٨٢/٢، المسعودي: مروج الذهب ٥٨/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٥/٢.

٩٨.ابن هشام: السيرة ١٣٧/١، الازرقي: أخبار مكة ١٠٣/١، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٣٩/١، الطبري: تاريخ ١٨٤/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ٢٠٩/٢.

٩٩.الأزرقي: أخبار مكة ١٢٠/١.

١٠٠. ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤٠/١، الطبري: تاريخ ١٨٨/٢.

١٠١. ابن هشام: السيرة ١٤١/١، الطبري: تاريخ ١٨٤/٢، الحموي: معجم البلدان ١٨٧/٥.

١٠٢. الأزرقي: أخبار مكة ١١٠/١.

١٠٣. ابن هشام: السيرة ١٤١/١، الطبري: تاريخ ١٨٤/٢، البكري: معجم ما استعجم ٩٢٣/٣.

١٠٤. المسعودي: مروج الذهب ٥٩/٢.

١٠٥. ابن هشام: السيرة ١٤٣/١، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤٤/١.

١٠٦. الأزرقي: أخبار مكة ٢١٧/٢.

١٠٧. م.ن ٢١٦/٢.

١٠٨. ابن دريد: الاشتقاق ص ١٣.

١٠٩. ابن سعد: الطبقات الكبرى ٤٣/١، الطبري: تاريخ ١٨٠/٢.

١١٠. ابن هشام: السيرة ٥٧/١، الطبري: تاريخ ١٨٠/٢.

١١١. الطبري: تاريخ ١٧٨/٢.

١١٢. الأزرقي: أخبار مكة ١١٣/١.

١١٣. م.ن ١١٤/١.

١١٤. تاريخ الطبري ١٧٨/٢.

١١٥. ذكر الأزرقي أن هذه الكنيسة بنيت بحجارة قصر بلقيس الذي بمأرب، وبلقيس صاحبة الصرح الذي ذكره القرآن الكريم في قصة سليمان عليه السلام، أخبار مكة ١٣٨/١.

١١٦. ابن هشام: السيرة ٤٣/١، الأزرقي: أخبار مكة ١٤٠/١، الطبري: تاريخ ١١٠/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٠/٢.

١١٧. ابن هشام: السيرة ٥٠/١، ابن سعد: الطبقات الكبرى ٥٥/١، الطبري: تاريخ ١١٢/٢.

١١٨. الفيل: ١.

١١٩. المسعودي: مروج الذهب ٢٨٠/٢، ابن كثير: البداية والنهاية ١٧٦/٢.

١٢٠. ابن هشام: السيرة ٥٩/١، الأزرقي: أخبار مكة ١٤٩/١.

١٢١. ابن سعد: الطبقات الكبرى ٦٢/١، الطبري: تاريخ ١٣٠/٢.

المصادر:

القرآن الكريم.

ابن الأثير: عز الدين علي بن أبي الكرم (ت٦٣٠ هـ)

١- أسد الغابة في معرفة الصحابة (١-٥) طهران ، ١٣٤٢هـ .

الأزرقي: محمد بن عبد الله (ت ٢٢٣ هـ)

٢- أخبار مكة وما جاء بها من الآثار، تحقيق: رشدي الصالح، دار الأندلس، مدريد، أسبانيا (د. ت).

البكري: عبد الله بن عبد العزيز الأندلسي(ت٤٨٧ هـ)

٣- معجم ما أستعجم من أسماء البلاد والمواضع (١-٤) تحقيق: مصطفى السقا، عالم الكتب بيروت (١٤٠٣هـ).

الحاكم النيسابوري: ابن البيع (ت٤٠٥هـ)

٤- المستدرك على الصحيحين (١-٤) إشراف: د. يوسف عبد الرحمن، دار المعرفة، بيروت (د.ت).

ابن حجر: أحمد بن علي (ت٨٥٢هـ)

٥- الإصابة في تمييز الصحابة (١-٨) مراجعة علي محمد البجاوي، دار الجيل، بيروت (١٤١٢هـ).

الحموي: شهاب الدين، ياقوت بن عبدالله الرومي (ت٦٢٦ هـ)

٦- معجم البلدان (١-٥) بيروت، دار إحياء التراث العربي (د.ت) .

ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ هـ)

٧- المقدمة، دار القلم، بيروت (١٩٧٨م).

ابن دريد: محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ)

٨- الاشتقاق، تحقيق: عبد السلام هارون، مكتبة المثنى، بغداد.

الرازي: محمد بن عمر (ت ٦٠٦هـ)

٩- التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) المطبعة البهيّة، مصر (د.ت).

ابن سعد: محمد بن منيع (ت٢٣٠هـ)

١٠- الطبقات الكبرى (١-٨) بيروت (د.ت).

السيوطي: عبد الرحمن ابن أبي بكر (ت٩١١ هـ)

١١- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، تحقيق: فؤاد علي منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ط/١ (١٩٩٨م).

الطبري: محمد بن جرير (ت٣١٠ هـ)

١٢- تاريخ الأمم والملوك (١-٥) دار الكتب العلمية بيروت، ط/١ (١٤٠٧ هـ) .

١٣- جامع البيان في تفسير القرآن، دار الفكر، بيروت (١٤١٥هـ).

الطوسي: محمد بن الحسن (ت٤٦٠هـ)

١٤- التبيان في تفسير القرآن، تحقيق: أحمد العاملي، مكتبة الإعلام الإسلامي، قم، (١٤٠٩هـ).

الفراهيدي: الخليل بن أحمد (ت ١٧٠ هـ)

١٥- العين، مطبعة دار الهجرة، قم (د. ت).

القرطبي: محمد بن أحمد الأنصاري (ت٦٧١هـ)

١٦- الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث، بيروت (١٤٠٥هـ).

ابن كثير: إسماعيل بن عمر بن كثير الدمشقي (ت٧٧٤ هـ)

١٧- البداية والنهاية (١-١٤) دار بن كثير، بيروت (ت١٩٦٧م).

المسعودي: علي بن الحسن بن علي (ت ٣٤٦هـ)

١٨- مروج الذهب ومعادن الجوهر(١-٤) تحقيق: محمد محي عبد الحميد، المكتبة الإسلامية، بيروت (د.ت).

المناوي: محمد بن عبد الرؤوف (ت ١٠٣١ هـ)

١٩- التوقيفات على مهمات التعاريف، تحقيق: محمد دايه، دار الفكر، دمشق (١٤١٠هـ).

ابن منظور: محمد بن مكرم (ت٧١١هـ)

٢٠- لسان العرب (١-٤) دار لسان العرب ، بيروت (د.ت).

ابن هشام: عبد الملك (ت ٢١٣هـ)

٢١- السيرة، مصر (١٣٩٠ هـ).

اليعقوبي: أحمد بن أبي يعقوب (ت ٢٩٢ هـ)

٢٢- تاريخ اليعقوبي، دار صادر، بيروت (١٩٦٠م).

المراجع:

باسلامة: حسين عبد الله

٢٣- تاريخ الكعبة المعظمة، تحقيق: عمر عبد الجبار، دار مصر للطباعة (د.ت).

الطباطبائي: محمد حسين

٢٤- الميزان، مطبعة إسماعيليان، قم (د . ت).

وجدي: محمد فريد

٢٥- دار معارف القرن العشرين، مطبعة دار المعارف (١٣٨٦هـ).